

سِرُّ حِفْظِ الْقَارَةِ الْمُظْلَمَةِ

بقلم توني كراوس
الأستاذ محمد لطفي جمعة

فلم يفتأ شئ مما يكون قد فأنك ولم تنم ذا كرتك
فتراه مائلا أمامك كأنك تراه وتسمعه لأول مرة
هل هذه «الفرجة» العجيبة نعمة أو نقمة؟
أهي هبة وموهبة تحمد الطبيعة عليها ، أم بلاء
ووبال يسعد المرء بالخلاص منه ؟ الحق أننى

لا أزال حائراً لا أدري ما أقول
لك ، وأنت التى حركت هذه
الفكرة العميقة فى نفسى وأثرت
كامن دأى

أهذه لوزان وبحيرة ليمان
وأوسى التى غادرها منذ عشرين
عاماً ، بعد أن أرغمتنى طواري
الحياة القاسية على قطع حبال
الشباب ، وتبديد أواصر السعادة ،
فهجرت غرفتى ودرسى فى فيلا
بيانكا بأفنود يزاليب . لقد مات
أبى فى جنوب أفريقيا ، هيرمان
كراوس صاحب منجم الماس
المنسوب إليه فى السبعين من
عمره . ولم يكن مريضاً بداء سوى
الشيخوخة المباركة السميدة
ولكن فقدته كان ألماً على وعلى
والدنى لأننى أول أولاده وآخرهم ..
نعم . نعم إنه لم يتزوج إلا بعد

(توني كراوس هو كاتب هذه
القصة القصيرة ، وقد أثارت شكوكاً
كثيرة لأن بطلها يحمل لقب المؤلف
نفسه . فتساءل القارئ إن كان قريبه
أو تمت له برابطة من روابط الدم
والنسب . وعلى كل حال فإن القصة
لا تنطوى على ما يشين بطلها .. وأمس
الحق فى اختيار الموضوع بقدر نهارة
فى سرد الوقائع وبسطها وشرعها
بمد طيها ، واتخاذ القعدة من نواتج
الأفنية والأفئدة ؛ وحلها على طريقة
سهلة لينة تعزى القارى . يشعبها بالقصص
الشوق . أما الرواية المزعومة - ومعه
الحقيقى - دوجلاس كراوس نحن
هيرمان كراوس فلم يرث عن أبيه
سوى الملايين وتاريخ الحصول على
الكثير أما الخطورة والعاصفة وتمرع
كرووس الألم فلم يرث الولد منها
شيئاً سوى التسلل إلى الترف
والاضطجاع على المقاعد المرفزة فى
القنادق الكبرى فى جنب المخططات
وقد سلك المؤلف مسلكاً صريحاً فى
سرد الحوادث الفاجعة بتسلسل
وسلاسة يشهدان له بعزى السكت
وضول البيع) . عن واينوردل مجازى
(مجلة أرض الله الواسعة)

ما هو ذلك السر الذى يجعل
الماضى قائماً ، على الرغم من سواد
بعض حواشيه ومرارة مذاق
الكثير من أيامه ؟

ما هو ذلك السر الذى يمثل
دور النقاش الماهر الذى يتناول
الأقلام والألوان ليصبغ
الحوادث بصبغة زاهية وردية
وبنفسجية وخضراء رائحة ؟

ما هو ذلك السر الذى ينفخ
من روحه فى أشباح الليالى
والأيام الخالية فتتغصص مبعوثة
من قبر الله كريات كالموتى التى
تعاودها الحياة يوم النشور ، وقد
خلعت عليها القوة الخالقة أثواباً
قشبية وحللاً موشاة من ركةشة ؟
بل ما هى القوة الخفية الماكرة
الساحرة التى تنشر أمام عينيك
لوحات سلسلة متصلة ، متحدة
من تصاوير الحياة التى جرت
وكرت وفرت . وقد أنقنت

التقاطها واكتنازها وعرضها ، حتى إذا تأملتها
وأنعمت النظر فيها أذهاتك دقتها وبراعة الحرص عليها ،

(١) Candelabre كفة حملة الشموع من المعدن والبلور
condelabrum ويمكن تعريبها بالقرى مجازاً وفى العريق الشجف
الاشرف

الحسين من عمره بأشهر ممدودة . وهو الذى
جاء بى فى العاشرة من عمري إلى فيلا بيانكا
لأثاني اللذات الحديثة على موسيو بروشيه
وزوجته . كان يحب أن يفشنى بعيداً عن بيئة المناجم

الصاخبة المهلكة . ليس المال الذي تركه لوالدتي ولأخي هو الذي يهمني . كان يهمني أن يعيش ولوعشر سنين أخرى ، حتى أبلغ ختام المقد الثالث ، كانت هذه هي أمي . ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه . كان يزورني كل عامين مرة . . . ومنذ صار الطيران مأمون العواقب كان يجيء . إلى سويسرا مرة في العام مصحوباً بوالدتي . والمرة الأخيرة باقية صورتها في ذهني لا تزول كأنها شريط صورة متحركة . . . كان يشمر المسكين أنها زيارة الوداع . وكان يقولها وقد أفضى إلى بسر حياته . إنه سر رهيب يا أنطونيا . انت فرنسية . . . فلاحه من شالون سيرسون . . . ماذا تقولين ؟ قرية شوفاي ؟ . ربما ! أنت طبعاً أدري باسم قريبك الذي لا يهمني بقدر ما يهمني جمال عينيك وسواد شمرك وتنضيد ثناياك . . . أقول إنك فلاحه فرنسية فلا يمكن أن تدركي روحي وروح أبي . أي نفسيتنا — حالتنا النفسية — عقليتنا غريبة عنك وعن قومك . نحن هولنديون أصلاً ، ويهود عقيدة وأنجليزوطنا ومناصريون هواية وباحثون عن الماس في كمبرلي احتراماً . وقبل كل شيء طلاب مال ، وقد حصلنا عليه مصادفة وتوفيقاً بعد أن فشلنا في اجتهدنا . . . ليس النجاح حليف الاجتهاد أبداً . . . لا تصدقني هذا الوهم . هذه خرافة اخترعها اتباع الفكر الحر والملاحدة .

المرء يا نينا لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً . . . صدقيني . . . إيه ؟ نعم ؟ تقولين إنني قد درى لأنني يهودي ؛ وبدء شك أنني أبدأ أكثر ذكاء مما ينبغي لمثل في مثل سني ؛ كذبت وأبيك ، أنا قدرى ، أو من بالاقضية والأقدار ، لأنني يهودي ، بل لأن حياة أبي صفحة من كتاب القدر ، والواقع يؤيدني

وأبدأ أكثر ذكاء مما ينبغي لمثل . هذه محمداً أو مذمة ؟ نيتك تفسر كلتيك . إن كان ما نزع من صحيحاً ، فلأنني عشت سنوات التكوين بعيداً عن حنان والدي ، ولا سيما أبي ، فلم أتعود التذليل والملاينة فاعتمدت على نفسي في معظم الأحوال ، حنان بروشيه الرجل وبروشيه المرأة كحنان الإوز صوت يجلب الصداق ، بلائدي ولا رضاع . فرييت نفسي وأدبتها . وأنت أيضاً لك الفضل في تعليمي . أنا أحبك منذ ثلاث سنوات وأخني حبك عن العالمين . لو علم أبي بملاقنتنا لقطع أسباب رزق وتركتني ضائعاً في شوارع لوزان المتحدرة ، كنت أبيع القطن شستاء والبنفسج صيفاً على متنه مونبونون ، أنا دو جلاس ابن المكرم هيرمان كراوس صاحب منجم الماس بكمبرلي . وحتى هذا الشيخ الطيب بروشيه ، لو لحني في تلك الفترة لو شئ بي عند والدي لينال الحظوة والمكانة . والحق يقال إن والدي أعادق عليه وأوصاه بي . وحل إليه هدايا كثيرة من كابتون وبلومفونتين ولأدى شيت ، خصوصاً ذكريات حرب البوير الألبية التي دوخنا فيها جيوش جلالة الملكة والأمباطورة فيكتوريا ريجينا . نحن سلالة البوير الأماجد ، ورئيسنا كروجر قوبل في مرسيليا بمظاهر التعظيم والفرح ولكن هذا تاريخ قديم . يهمني أن أقول لك إن قومك قوالون لا فعّالون ، فيف لا ليبرتيه ! وبعد ذلك بقليل فيف لا إنجلترا . لا يهمنكم إلا الفرنك ومستعمرات شمال أفريقيا وبعدكم الطوفان ولكن الله سلم ! لم يرنا أحد ، لأنني كنت أحتاط في رحلاتنا الصغيرة إلى مورجان وشاتيل جيون والآن يا نينا يمكنني أن أعيش معك في صراحة

وعلائية ، بعد أن مات الوالد المزبّر . لقد سلبني
 موته سعادة الشباب وعدم الشعور بأعباء الحياة ،
 وجلب لي الحرية والمال . أهي ؟ ... أنا لا أعيا بها .
 إنها في الخامسة والثلاثين من عمرها وغنية جداً ، وتملك
 قصوراً في هولندا ورثتها عن أبيها إيليا فان كيكوم
 أحد الشركاء في مصنع قطع الماس في امستردام ،
 وضياعا ومناجم في جنوب أفريقيا ورثتها عن أبي فا
 حاجتها إلى . يمكنها أن تزوج بمن تشاء في أي وقت
 تشاء ، وليس في الوصية الكريمة شرط يعوقها ولا في
 شريعتنا مانع يحرمها نعمة القِران . . أنا لا أذهب إلى
 جنوب أفريقيا إلا مرة واحدة كل عام لأقبض نصيبي
 وأشرف على مجلس إدارة المنجم الصغير الذي وقع في
 سهمي . وهكذا هبطت من سماء التعليم الجامعي إلى
 حضيض الاتجار بالجواهر — كوهي نور — كوكب
 أفريقيا — درة روديسيا — ولكن أعظمها جميعاً
 نجمة القارة المظلمة . طبعاً أنت لا تعلمين شيئاً عن
 تاريخ تلك الجوهرة الفذة : نجمة القارة المظلمة . إن
 تاريخها هو تاريخ ثروتنا — ثروتنا وفقراً — أعني
 أننا بدونها لم نكن شيئاً مذكوراً . إنني تلقيت
 السر عن صاحب الشأن نفسه في القصة ، عن
 والدي العاطر الذكّر هيرمان كراوس . (فيرست
 هاند أنفورماشن) كيف أقولها لك بالفرنسية ؟ خبر
 صحيح عن صاحبه مباشرة — حديث مباشر لا
 وسيط فيه بيني وبينه ، باح لي به قبل أن يموت ببضعة
 أشهر . لقد قلت له بعد أن حكاه واضطجع منهوك
 القوى : بحق جيهوا ، إنك واسع الخيال يا والدي
 خصب المواهب . خسارة كبرى أنك لم تنل حظك
 من تأليف المراثيات^(٢) للصور المتحركة . وكنت جاداً

لا هازلاً . فابتسم المرحوم ابتسامة صفراء ، ثم حرق
 الأدم وأبرز فسكه الأسفل وبدأت في نظراته الشذراء
 شملة لم أر مثيلها وقال لي : حسنًا تفعل إذ تشك
 في صدق أبيك . وقفز في أقل من لمح البصر وعاد
 بالوثائق التي لا تقبل الشك في إثبات صدق روايته .
 وإليك الآن خلاصة منها كما حدثني أبي : « قال
 نشأت في جنوب أفريقيا من والدين هولنديين ،
 وكنا نعيش في ضيعة صغيرة على ضفاف نهر أورانج ،
 وكنت منذ نعومة أظفاري أسمع الحديث عن الأحجار
 الكريمة ، والجواهر الثمينة ولا سيما الماس . فاعتقدت
 بكل قواي أن ثرائي وعزّي ومستقبل حياتي في
 الماس ، دون سواء . في ذلك الحجر اللامع البراق
 الذي يشع منه النور بقوة سحرية . ولكن أبي
 كان يمتزني ويوصيني بالأرض والزراعة ويقول :
 إن الطبيعة خير ضامن لحياة الإنسان ، وإنها إن ضنت
 عليك اليوم بخيرها ، لا بد أن تجود بأضعافه غداً .
 الأرض كالغداة تغضب يوماً وترضى أياماً . ولكن
 قوله لم يقمني فتيلاً ، فهجرت المزرعة والاصطبل
 والمرعى ، ورحلت إلى رأس الرجاء وناتال وديربان
 ومدغشقر ، واشتغلت في كل صنعة وفن حتى ادخرت
 مالاً قليلاً فشددت رحلي إلى مناجم الماس وشربت
 « أمهما في امتياز » ومعنى ذلك أنني رثت حقاً
 بالبحث والتنقيب ، فاستأجرت عمالاً واستخرت
 الله في بقعة من الأرض الموعودة . وأخذنا نعمل
 ليل نهار في بطن الأرض نتلّس البريق من خبايا
 الطبقات المظلمة حتى إذا لحنا ما يشبه اللعة طارت
 نفوسنا شعاعاً ... ولكن أنما بنا ذهبت هباء ،
 وهكذا المال ... وهناك حول جيمستون وكيمبرلي
 وكونكوست لوك رجال يتجرون في عقولنا ويميشون

ونفقات العلاج وأنسبة التأمين على حياة المال الذين قد يقضون نجهم في جوف النجم ، كل تلك النفقات تفوق مقدوري على الصرف . ولو وجدت رجلاً مثلك يقدم المال ليكون الأمر بيننا مشاركة بالنصف ما فرطت في هذا الدليل بالبيع . قلت : ولم لا تؤسس شركة مساهمة

قال : يطلب مجلس الأمناء قبل الاكتاب برأس المال الوقوف على السر ، فاذا وقفوا عليه ضربوا بالشرف عرض الحائط واستغلوا النجم لأنفسهم وهذا حدث بنصه وقصه لجون صاطسفلندوها كني كوتش سبرنج وكابن كلندر دويست الهولندي وغيرهم .

فما كاد الرجل بفرغ من كلماته حتى دفعت المال وأخذت الخريطة

واعتدل المتكلم دو جلاس كراوس في مقدمه على فيراندا فندق بوسيجور المطلة على بحيرة ليمان في مدينة لوزان تلك المدينة التي تعلم فيها على يد موسيو بروشييه وحرمه . وأفرغ نظراته الحارة الخارقة في عيني عشيرته أنطونيسا شينو (وكان يدعوها نينا تدليلاً) تلك الريفية من شوقاي سيرسون التي عاصمتها شالون . ومد ذراعه القوية المتينة حول خصرها ودعا بالخدام وقال له :

زدنا من ذلك الشراب الأخضر

فقال نينا : يبرنو . ثم نظرت إلى عاشقها المعلق الحليق الشارب والمعارضين وقالت له : إنها قصة محببة عميقة ، يزيد بها جمالاً أنك راويها ، وأنها حقيقة لا شك فيها

فقال : كلما أذكرك أنه لولا ما قاساه أبي هيرمان كراوس من الآلام ووقع فيه من المخاطر ، لم أكن

على غفلتنا ، فيبيعون لكل راغب خرائط رثة ورموزاً عتيقة ووثائق مزيفة يزعمون أنها نتيجة فحص المتقنين وأنهم يملكون مفاتيحها بشرط أن تشتريها فيدولونك على نفس البقعة التي لا تحوجك إلى كثير عناء . ويزينون حديثهم بإبراز قصاصات من الصحف تؤيد مزاعمهم وقصصهم ويدعمون خرافتهم بأسماء وألقاب وتواريخ . فلا يكاد أحداً من المستجدين على قاعة الأطماع التي لاحد لها ، يسمع ويقرأ ويرى وجه المهندس المجدد وحاجبيه الأبيضين وجبينه المليء بالخطوط والثنايا وعينه الخارقتين كمبنى المقاب حتى تزول آخر شكوكه ، ويؤمن بصدقه ويجود بالمال في سبيل الحصول على « دليل النجم » (وم هكذا يسمون تلك الخرائط والرسوم) فيتوهم أنه حصل على عقد ملكية أو « حجة بيع » لأرض ثابتة الحدود والعالم لا ينفصه إلا وضع اليد لاستغلالها ولم يخطر ببال أحد منا ونحن نبذل المال في سبيل هذه الخرائط الوهمية أنها لو كانت ذات قيمة أوتدل على مواطن الناجم لكان صاحبها الذي يبيعها أولى الناس بها . وحدث في يوم من الأيام أن عرض على أحد هؤلاء الناحرين بالخبال والآمال فأخرجت الثمن مائة جنيه انجليزى وتناولت الورقة بيدي ثم وقفت فجأة وامتنعت عن الدفع وقلت له :

— إذا كان ما تقول حقاً فما يدعوك إلى

التفريط في دليل النجم بالبيع ؟

فابتسم الرجل ابتسامة عريضة ساخرة وكشر عن أنياب طويلة صفراء وقال :

— سؤال وجيه والجواب عليه أوجه . اعلم ياسيدي الباحث عن الناس أن شراء المدد واستئجار الرجال وتأسيس مستعمرة للتنقيب وتسليح الحرس

لأنتفع بشيء مما أنا فيه من ضروب النعم ، أشعر
بلذعة الندم على أنني لم أكن قادراً على معونته .
وجاء الخادم بالقنينة الخضراء والكأسين فلأهما
وأبرقت الخمر الزمردية في ضوء الأصيل وانمسكت
أشعتها على ممدن الآنية البيضاء اللامعة . وانحنى
دو جلاس على وجه نينا ليقبلها فرفمت رأسها وأدنت
فها من فمه في قبلة طويلة حالة

— ومن العبت أن أقول لك يا ولدى — هذا
أبي الذي يتكلم بانينا لا تفقدى خيط القصة — حذار! —
من العبت أن أقول لك يا ولدى إن بائع الخريطة هو
الذي فاز بالنجم ، منجم الذهب أى المائة جنيه
التي دفعتمها . وهامى ذى الخريطة عندي لم يقو أحد على
حل رموزها . ولو كان الملك سليمان نفسه نبى عشرتنا
نحن بنى إسرائيل حياً يرزق ما قدر على فك أسرارها .
فلما فقدت ما كان مى عدت إلى العمل والكفاح
حتى جمعت ألف جنيه — ومن يستطيع دخول باب
الجنة أو جهنم بأقل من هذا القدر من المال ؟

وفى هذه المرة ابتسمت لى الدنيا فأنى تعرفت
إلى نقابة من الباحثين — يسمونها نقابة أى نواة
لشركة مساهمة — كنا أربعة ومع كل منا ألف جنيه ،
فبحشنا عن خامس يملك ألفاً آخر ، حتى وجدناه ،
فانضم إلينا وهجمنا على منجم مهجور واصطنعنا
عقد بيع صورى من أصحابه الأقدمين ولم نكن نعرفهم
ولم نسمع بأسمائهم ، ولكن فى دياموندفيل وكلاء
أعمال ووسطاء يقومون بهذا النوع من الخداع
والترغيف . ثم سجلوا العقد وختموه بأختام أورانيج
ريشر كولانى وترنسفال ريبيليك — ولا يزال ختم
هذا المسكين كروجر عندي على هذه الورقة البالية —
أنت تعرفه فى التاريخ ، إن لم يكن الانجليز يحوا اسمه

من دفاتر التلاميذ فى المدارس ، هو الرجل البورى
المعجوز الذى وقف فى وجه امبراطورية بريطانيا
المعظمى لحرية وطنه . ثم أخذنا فى العمل على قدر ما
يسمح به رأس المال الضئيل . خمسة آلاف جنيه
رأس مال ضئيل جداً كالذبابة على أذن الغيل ،
بالنسبة للأموال التى تجمع وتفرق بل تذوب . إن
المال الذى يضيع كل عام فى البحث عن الماس يكفى
ثمناً لنصف الماس الموجود فى العالم ... تصور يا ولدى
دو جلاس . وأخيراً .. بعد جهاد دام ثلاثة أعوام
ذقتنا فيها مرارة الميش ورضينا بشظف الحياة —
عثرت أنا بالحجر الكريم فى شكل فصوص صغيرة
لا تزيد على قلامة الأظافر . فاحتفلنا ومرضنا وطمعنا
وشربنا وأغدقنا على العمال والأحراس وضاعفنا قوة
العمل مع أن الذى وجدناه لا تبلغ قيمته خمسين جنيهاً .
ولكن من يدري لعل فى المنجم ما قيمته خمسة ملايين .
ولكن لجأ تغير الجو فى المنجم ، أى بيننا نحو
الشركاء ، حدثت شبه عاصفة ، فأدركت السر من أول
الأمر ، ثلاثة من الأقوياء وهم شرار النقابة تواطأوا
فيما بينهم على إقصائى وصاحبى ، ولهم فى ذلك وسائل
شتى — وإنهم والحق يقال ييقون على حياتك إذا
تنازلت عن كل حقوقك فى صمت وبدون مقاومة ،
فان ثرت على هذا النظام الجائر يقدمون إليك ما
شئت من المال نقداً وعداً حتى ترضى ، وتوقع بمضائك
على صك تنازلك — واعلم أن هذا الصك يشمل
أيضاً الحكم عليك بالاعدام فانهم يتناولون الورقة
باليمن ويطلقون عليك الرصاص بالشمال . ولكن متى
تقع هذه الفتنة ؟ عند ظهور الجوهر فى المنجم ،
لا قبل ذلك

يقول أبي هيرمان كراوس : فخرت بليل ،
وجست خلال الأدغال والحراج ، ولا مست الأفاعي
والحيات ، وكدت أقع فريسة لأنياب الضواري ؛
وكان في أذني طنين ورنين ، وفي عيني بريق ، وفي
صدرى زفير بغير شهيق . المال الضائع والأمل
الخائب والغدر البيت ومصرع الرقيق ووحشة
الطريق .. كم يوماً في الطريق ؟ لم أعد الساعات ولم
أحص الأيام والليالي — كان صباح وكان مساء ،
وكان برد ومطر وعاصفة وقيظ ، فتمزق وجهي
وخلقت ثيابي ، وتبددت نعال حذائي . فلما
أمنت عاقبة الافتقاء وأيقنت أن لا أحد يراني
ولا طلق يصيبنى ارتعيت على ظهري في سفح
جبل ... في مكان جميل ولكنه موحش . نور
ومجرى ماء وشجرة تفاح برى وحصباء ممهدة
بلون الياقوت . وكنت في أشد الجوع وأحر
الظما ؛ ولكن تعبى وانتهك قواي كانا أشد على
نفسى من الجوع والمعطش ، فلم أملك طعاماً ولا شرباً
وإن جرى الماء تحت قدمي ودنت الفاكهة من يدي .
فنمت واستفرقت وحملت كما يحلم الحيوان ورأيت
في الرقاد ما يرى القط والكلب والفهد .. ثم رأيت
رؤى الرجال .. مخلوقات البشر . صاحبي الذي قتل
برصاص الأوغاد الثلاثة ما زال حياً ، وما زلنا
نجرى للفرار من أيديهم ، حتى بلغنا مكاناً قصياً
فتصالحنا ثم نخاصمنا فننازلني ولا كمنى إلى أن عجز
عن التغلب عليّ فتناول صخرة ضخمة وقذفني بها ،
فأصاب رأسي فصرخت ووقعت منسياً عليّ

في تلك اللحظة فتحت عيني على ألم في رأسي
لم أر مثله ، فوضعت يدي مكان الألم فاذا سائل لزج
يجرى ويتدفق فحوت يدي أمام عيني فاذا بها ملطخة

فقال لي صاحبي وهو شربكي في التنازل المحتوم
والموت المنتظر : الأولى لنا أن نتملق بأذيال الفرار
ثم سمعت قليلاً وقال : هل لك في مغامرة ؟ قلت نعم .
قال ثوب المال والأحراس عليهم فتنغدى بهم قبل
أن يتمشوا بنا . قلت : ومن بضمن أن المال
والأحراس لا يتمشون بنا ؟ قال : هي المغامرة كما
قلت لك . ولم أكن غريباً عن جنوب أفريقيا ،
ولكنني غريب عن المقاطعة ، فقلت له : والحكومة ؟
فقال : الحكومة ... أية حكومة ؟ الحكومة
هي الميان : المنجم والمال ... (١)

وفي تلك اللحظة تملت لي حلاوة الحياة فقلت :
أما أنا فالوز بالفرار وأنجو بالبقية الباقية من عمري
ولم نكد ننتهي من هذه المؤامرة الخائبة حتى
دخل علينا الثلاثة الأوغاد وقالوا : « هاندزأب » وهي
نذير الهلاك والفناء والقضاء البرم ، فرغمنا أيدينا
ثم أملينا تنازلنا ووقعنا عليه تحت أفواه المسدسات ،
فتناوله الثأمرون ثم جلدونا بالسياط حتى أدموا
جباهنا وشوهوا وجوهنا وساقونا أمامهم كما تساق
الأنعام حتى أخرجونا من حدود المنجم الذي روينا
أرضه بدماء قلوبنا وعرق جبيننا . وفي الظلام الحالك
أطلقوا علينا الرصاص فأردوا صاحبي قتيلاً ونجوت
وحدى وكانت معجزة . فقالت نيتا : كل هذا في
في سبيل الماس ! فضحك دو جلاس كراوس فجعل
هيرمان كراوس الذي قامى هذا المذاب

— سبيل الماس وأين هو ؟ في سبيل الأمل .
ألا تدلين أن كل قرط أو حلية أو خاتم من ذلك
الحجر اللئيم الملعون يحمل في بريق أشعته دماء ألوف
من الناس ودموع أرامل وأيتام وأيام لا عديدهم ؟

بدى فهضت مذعوراً ، وإذا بي أرى حجراً ضخماً قد شج رأسي من خلف فتناولته ..

أنظر ! إسمع ! إعجب ! حجر من الماس لا يقل وزنه عن أقة ونصف أقة .. لو أنني عثرت به في حالة الصحة والرضى والحبوحة لفقدت عقلي . ولكنني وجدته وأنا قريب من الموت والجنون ، فلم يزدني ذهولاً ولا ألماً ؛ والسم الذي كان يقتلني لو غلا في عروقي من شدة الفرح فصدمته مصادفة . كيف تفسر تلك الحادثة ؟ يا دوجلاس ، هدية الروح ، روح صاحبي التي زهقت ، إلى أنا الشريك المخلص . أراد أن يغنيني ويقتلني .. يغنيني قبل الموت بطريقة عين ، فتصيد تلك الماسة الضخمة وقذفني بها ليشج رأسي وليهديني — إن كانت الموتي تهدي الموتي — إلى أن ما لم يُنل في الحياة قد نيل قبيل الموت .. لا ، لقد عرفتها في طرفة عين في البقطة القصيرة بين الموة الصغرى والنوم العميق . أُبعل أن مثلي يجهل الماس ، ذلك الحجر الذي قضيت بعض عمري في البحث عنه والتنقيب عليه ؟

نهضت مذعوراً وفرحاً . وبعد أن كنت آمناً في الوحدة مطمئناً للسكون والخلوة ، أرحب بالأخطار التي قد تنقذني من حياة الفقر والفقر ، أمسيت مرعوباً من حجة البشر أرقبها في قلبي وأدعو الله أن ينفذني منها . وكان همي أن أفر من ذلك الوادي السحيق إلى الحضارة التي تمرر الجواهر وتقدرها . وفتحت عيني على الشبع بعد الجوع ، والراحة بعد التعب ، والرى بعد الظما . ولكن دى كان ينزف غزيراً حاراً لزجاً ، كخمرة الجن . ففسلت الجرح بماء الغدير ثم ضمدمته بأوراق الشجر وفكرت في طريقة لاختفاء الماسة — وهي التي

صارت بعد بضعة أشهر نجفة القارة المظلمة التي أمست أغلى على من نفسي وأعز ، فلم يهدني خيالي إلى خير من أن أشدها إلى فجوة رأسي التي جرحتها . وانتزعت أكام سنرتي وصنعت منها رباطاً متيناً ، صار والحجر الكريم تحته كمامة مهر آجاء هندي . ولكن مظهره يدل على منتهى الفقر وكسبت من الكنز الذي أحمله قوة عصبية وجلداً على السير . وتبلفت يبضع تفاحات وتزودت بمثلها واحنست الماء براحتي ووجدت في ذلك الاناء لذة كبرى . كنت بالطبع أخبط في الغاب خبط عشواء لولا أن أشرق القمر ودلني نوره على اتجاه الشمال الغربي الذي أقصد إليه . أتصدق يا ولدي دوجلاس — هكذا كان أبي يقول — أن الخراب أكثر من العمران بمراحل ، وأن الخراب أغنى من العمران بماله واتساع أركانه ووفرة خيراته ؟ فكنت أسأل نفسي في دُجى الليل — أنا ذلك اليهودي المنتصر — سيجانك يا يهوا ! هل خلقت كل هذا عبثاً ؟ حاشا وكلا ! لمن هذه المسامح الشاسعة من الأرض ، وتلك البطاح التي لا يحدها البصر ولا يبلغ مداها المنظار المقرب والمعدسات المكبرة ؟ وكم مضى من القرون على تلك الأراضي الحصينة الصالحة للزرع والضرع ، والأنهار الجارية والجبال الشاخنة والرياح المدوية والبساتين المشرقة بالأشجار والأزهار المخضلة البانمة كالأبكار التي تقضي الشباب في التبتل والحرمان الدائم ؟ أخلقت سيجانك هذا الفنى عبثاً ؟ إن الملايين من هذا الجنس البشري النعس تعيش في أما كن ضئكة متراخمة متلاخمة متراصة كتمثيل الخشب وهي في غفلة وجهالة عن هذه الساحات والمساحات ! تنفخ الأهوية القدرة

ويست أفريقيا» وهناك تفتيش دقيق على الماس بصفة خاصة . فان كثيراً من عمال المناجم بفرون بقتات الموائد أو تراب إبار الذهب فيقبض عليهم ويتكلم بهم ... ولما بلغت الحدود كنت في حال يرئى لها من الجوع والتمزيق والضعف . ولم يكن يصلب عودى إلا أمل الفرار بثروتي . وكنت من التجرد بحيث أنف حرس الحدود أن ينظر إلى بدنى النحيف العارى . فثلث دور السائل واستجدت القوت . ولما سئلت عن عمامتي قلت جرح متعفن وهمت بفك أربطتي فمافوا النظر إليها وركلني أقسام قلباً خارج الحدود ليقصى منظري عن عينه ، فحمدت الله وساق هذا الكريم الذى رفسنى . وقطعت أرض المستعمرة الألمانية إلى أن بلغت ميناء وندهوك بعد أن اخترقت صحراء كلاهاري ونصيباً كبيراً من بنشوانا لاند. واشتغلت في وندهوك سائقاً لسيارة تاجر غنى من جروت فوتين . وتعودت أن أخفى ذخيرتي في مخزن أدوات التصليح وأنام بجوارها في الجراج فلا تنقب عنها عيني نهاراً ولا أفارقها ليلاً . حتى استمدت صحتي وجمعت مالا يكفيني للسفر إلى أمستردام مقر تجارة تلك التحف الغضة وموطن مصانع الماس ومجهزته ، وعلى ظهر الباخرة جمعت مالد وطاب من المعلومات النادرة عن تقدير الأحجار وقصصها ، وطرائق عرضها وأسماء الخبراء فيها وكيفية الاتصال بالخبراء والوسطاء ورجال القانون المتخصصين لمسائل البيع والشراء وحيل السماسرة والتجار ، في استبدال الصفقات أو تزيفها وتقويت الفوائد على أربابها وألوان الدسائس والمكاييد و« المقلب » التى يتقنها اللباب والديدان البشرية التى تحوم حول الثروة

الملوثة وفي الكون ذلك الفضاء الواسع . وأنا .. أنا هيرمان كراوس . . أسير وحدى واحمل على رأسي ثروة تقدر بالملايين ، ولا يعلم بي أحد من خلقك ، ولو علموا بي لمزقوني إرباً ، ولو كانوا أقرب الناس إلى ، لينالوا تلك الجوهرة الثمينة التى أصابتني فى يافوخى ... كما تعلم يا جيهوا عند ما أردت أنت ، ولم أكن أريد ولا أشعر ولا أنتظر . إني أكاد أجن من الفرح والدهشة والخوف والرهبة منك يا جيهوا ! رزقتني بغير حساب ولا اجتهاد ولا انتظار .

— تك ! تك ! يا دوجلاس العزيز

— ماذا بك يا نينا ؟

— أبوك هذا كان حاكماً من الدرجة الأولى ؛ كان يشكلم كأنبيا بني إسرائيل ، لا أذكر أننى سمعت مثل هذا الكلام إلا من فم جدتى وهى تقرأ بمض صفحات العهد القديم الرعبة . ماذا تسمونه عندكم ... التوراة ... نعم توراة . لقد صدق من قال : ضع اليهودى في البئر الخربة أو ألقي به في غيابة الجب يخرج لك صيرفاً أو وزير مالية .. وهذا أبوك يصير رغم أنفه تاجراً عظيماً في رى دى لاييه^(١) فضحك دوجلاس كراوس ملء شديقه وقال : أو كما قال هذا الآخر : « كتب الفنى على رجالهم ، كما كتب الزنا على نساءهم » لذا لا تجدينى متعجلاً أمر الزواج أبى يتكلم :

وكانت هذه التأملات وحدها وسيلة إنقاذى إلى أن بلغت الحدود بين ترنسفال و « جيرمان

الأمانة التي حملتها تسعة أشهر ، كأنها جنين آن
أوان ولادته

ووزنت وقدرت بعد أن فحصت. وكتب عقد
البيع وطلبت إلى رئيس الشرطة أن ينقل الصكوك
والمقد وتحويل المال إلى خزانة باسمي في أحد
المصارف وخرجت من مجلس المقد لأحمل إلا
عشرين فلورين اقترضتها من المحامي ... ولكن بنك
أمستردام فإن هولاندير سيفان كان يحتفظ لي
بمليونين وثمانمائة ألف جنيه أسترليني «

وضحك دو جلاس كراوس ضحكة عالية وضم
أنطونيا إلى صدره وقال لها : مارأيك ؟ هذه قصة
ثروتنا . وقد مات أبي بعد أن تضاعف ماله وعاد إلى
جنوب أفريقيا فوجد منجم النقاية التي تمقبتها وصاحبه
خراباً وعلم بأنهم أفنى بعضهم بعضاً قتلاً ، وبحث
عن ورثة صاحبه الأمين الذي قتل بجواره وهو
يفر ، فاهتدى إلى عمه له ، عجوز في بوركشير فأعقد
عليها وأغناها . وتعرف إلى تاجر وندھوك الذي
استخدمه سائقاً لسيارته. وأخيراً أوصى لي بالمال
الذي سهل لي حبك وضمك إلى صدري هكذا !

فتهدت أنطونيا من أعماق قلبها وقالت :

ولكن نجفة القارة المظلمة هذه ...

فقال دو جلاس كراوس : نجفة القارة المظلمة
نقصت في عملية القطع بقدر ثلث وزنها . ولما
كانت مستطيلة الشكل ، فقد خرطت على صورة
الكثري وصار لها ألف وأربعمائة وتسعون وجهاً ،
مساحة الوجه ثلاثة مليمترات مربعة ؛ وصارت
تشع نوراً لا يقل عن خمسمائة ألف شمعة ، وقدر
القيراط فيها بثلاثمائة أسترليني ووزنها عشرة آلاف

لثولتها أو تحطفها أو تمص دماء أصحابها . لقد كانت
الباحرة عشت زناير ، ووكر عقارب . وقد صوروا
لي أسواق أمستردام كأنها غجائيء لصوص ومكان
قطاع الطرق ، ووالله حسناً فعلوا . وكنت أسمع
طول النهار وطرفاً من الليل ثم أفضي الشطر الأخير
في التدوين والتفديد حتى لا أنسى الأسماء والصفات
والمنومات . وكنت أصحب الرجل يوماً أو يومين
أو ثلاثة حتى أعنصره عصراً فلا أترك في جوفه
مراً ولا خيراً إلا وقد أفشاء لي وأطلعني عليه
أو حذرني منه وهو يعلم أنني لا أسأل إلا مستظلاً
ولا أسمع إلا مثلاً ولا مصلحة لي في شيء وإنه
لو علم لي نفعاً لضن بوزن الدرة من كلمته

وبلغت أمستردام وكنت أربط الكنز على بطني
حيناً وأحمله في حقيبة قديمة بالية مع صحف قديمة
أو فضلات الطعام ، وجست خلال البلد والمصانع
و « بورصة الماس » وأخيراً أخبرت محامياً متواضعاً
أنني وكيل نقابة تمك منجها وأنهم عثروا بماسة
كبيرة يريدون بيعها . فلما جمعتي ببعض التجار
ووصفت لهم الحجر الموعود وصف خبير كادوا
يحنون من الدهول والدهشة وقدروا ثمنه بثلاثة ملايين
من الحنيتات الأسترلينية . ثم شكوا في الخبر ،
وأذروني بأنهم لا يدفعون شيئاً من الثمن مقدماً
خشية أن أكون محتالاً . فطمأنتهم بأن الحجر قد
نقل فعلاً من المنجم وسيصل إلى البلد بعد بضعة
أيام فتبادلوا نظرات العجب والريبة . وفي اليوم
الذي اخترته لبيع الحجر بكرت إلى المحامي وأفضيت
إليه بالسر في الطريق فقصدنا إلى مقر الشرطة
واتخذنا حرساً واجتمعنا بالتجار ... وأظهرت

قيراط . وقد قبض والدي ثلاثة ملايين من الجنيهات ، إلا مائتي ألف جنيه أنفقت في عملية القطع ورسوم التأمين والجرك وأتباب المحامين في تحرير العقود ، والنسبة المئوية للخبراء والوسطاء والمصورين . ولكن نقابة الماس التي اشترت الجوهرة في امستردام قدرت لها ثمنًا للسوق أربعة ملايين وأعلنت عنها في جريدة « دياموند ورلد » التي تصدر مرة في كل ثلاثة أشهر فكان لها عدد خاص ممتاز شمل تاريخ هيرماس كراوس وجوهرته القديمة من خيال المحررين . فكان أول من تقدم للشراء الكولونيل هوب فان زيلاند الهولاندي صاحب معامل الجبن والكاكو في روتردام ، وكان قد ورث عن أبيه القبطان البحري سمارك فان زيلاند عشرين مليون جنيه ربحها من مستعمرات هولاندا في أندونيسيا . وكان الوالد متعهد بتوريد الأغذية لألمانيا في حرب السبعين وأول من اخترع الجبن الفلنك الأحمر ، وأدخل على الروكفور طريقة « التعفن الخالي من الجراثيم » فتمت أرباحه في عام واحد ثلاثة ملايين ومات الشيخ فان زيلاند في حديقة قصره في سكفنجن على شاطئ زاندرزى محاطاً بأعرب أنواع الأزهار ولا سيما الخزامى الزرقاء التي تحاطف بذورها ملوك الأرض . وتزوج ابنه الكولونيل هوب فان زيلاند من الأميرة جوهان باننيرج فأراد أن يتقرب إليها بإهداء تلك الجوهرة وسدد ثمنها على ثلاثة أقساط متساوية في مدى سنتين

فقال انطونيا : ما أسعد هذه المرأة ولكن بالله قل لي كيف تحمل سيدة عبء هذه الجوهرة التي تزن أكثر من كيلو جرام ؟

فضحك دو جلاس كراوس وقال : إنها

لا تحمل ولا تصاغ ، ولكن تحفظ في القصور تحفة زار وتعرض للأنظار وبتهالك على مشاهدتها الفقراء . ولكن لا تظني السعادة مقرونة بمثل هذا الثراء ؛ فان تحفة القارة المظلمة جلبت الهلاك والدمار على أسرة فان زيلاند فقضت الأميرة نجبتها ، وانتحر الكولونيل وكادت المعامل تمحى من الوجود لولا تدخل الحكومة وتأسيس شركة مساهمة حلت محل الورثة وبيعت الجوهرة فيما بيع من مخلفات هذا البيت الكريم ، فاشتراها ولي عهد إنجلترا الأمير هنري نجل ادوارد السابع وكان « برنس دي غال » ولم يزد ، وقد اتوى إهداءها لخطيبته التي صارت بعد وفاته ملكة إنجلترا بقراتها بأخيه جورج الخامس . فقد أصيب بالحمى الماعلية وكان مصاحباً للأسطول في البحر الأبيض ، فانقلبت أفراح الأميرة أتراحاً . ولم يتنبه أحد إلى أن تحفة القارة المظلمة هي التي حلت البلاء إلى هؤلاء الأسياد النافلين عن شرها

وأودعت الجوهرة حيناً في قصر سنديرنجهام فتصدع أحد أركانه فنقلت إلى خزان « بنك أوف إنجلند » واشتغل الوسطاء بالترويج لها والدعاية لبيعها حتى تمكنوا من إقناع ملك البرتغال بشرائها ...

فاشترها ولم يمض على دخولها لشبونة عام حتى قتل الملك والملكة وابنتهما في شوارع المدينة بانفجار قنبلة فوضوي ، ولم ينج من المذبحة إلا عمانوئيل الذي توج ملكاً بتيما وخلع وقضى نجبه في مستقبل الشباب منفياً في بلاد الإنجليز . وكان صحن إنجليزى اسمه ماكسويل يتتبع خطوات « النجفة » فسرد تاريخها بفتنة وإحكام في سلسلة مقالات في جريدة

فقال انطونيا : ما أسعد هذه المرأة ولكن بالله قل لي كيف تحمل سيدة عبء هذه الجوهرة التي تزن أكثر من كيلو جرام ؟

فضحك دو جلاس كراوس وقال : إنها

في نيويورك في ملك مسز هاملتون درموند ملكة
الفولاذوق قد جعلت عليها أحراساً من الأشداء المسلحين
بالخناجر والمسدسات وجعلتهم على ستة فرق تسهر
كل فرقة أربع ساعات في الليل والنهار، وأحاطت المكان
بأسلاك الكهرباء الموصولة بمركز الشرطة. وتدفع
عنها عشرين ألف جنيه في العام تأميناً ونفقة للحارسين
— إنها بلا ريب مجنونة فأنها تفقد مثل ثمنها
في بضع سنين إن بقي لها المال وبقيت على قيد الحياة
— كلا؛ إنها جد حريصة فقد احتالت حتى
جعلتها تدر إيراداً يربو على نفقات حراسها بأن
فرضت جملاً قدره عشرة دولارات على كل من
يريد مشاهدتها، فلا يقل عدد الزائرين عن خمسين
مخبولاً في النهار الواحد. وأظن أن هذه الطريقة
منعت نحس الجوهرة. كان أبي هيرمان كراوس
يقول: الركود مجلبة الدمار، والحركة وسيلة البركة؛
ويقول: الربان لين في شرح التلمود: «يد البطالة
نجسة» وأنا أقول: الجوهرة التي لا تدر خيراً على
صاحبها تجلب له الشؤم والحراب. وهذه الأمريكية
الماكرة عرفت سر نجفة القارة المظلمة كما عرفت
أنا سر

فقلت أنطونيا والنوم يداعب عينيها، فقد أقبل
الليل وأضاءت أنوار المدينة وانعكست أشعتها على
البحيرة الفاتنة:

— أنا؟ إنك مازح! ماذا أدر عليك؟

— تلك القُبَل الشبيهة هي أرباحي

— ورأس المال؟

— هو حبك الدائم واستمتاعي بك الذي

لا ينقطع. هيا بنا فقد آن أوان اقتطاف الثمار

محمد لطفي جمعة

دبلي ميل، فسارع وسطاء الماس في بورصة باريس
ونيو يورك إلى إسكانه بمشرين ألف جنيه، فترك
التحرير والتحرير وعاش سعيداً في قصر منيف في
مقاطعة كنت. وبذلوا له عشرة آلاف أخرى
ليكذب نفسه عن شؤم الجوهرة، فأبى وقنع بما ربح
وكان مهر اجا أندور في الهند من أرباب الملايين
أصابه جنون التبذير، وركبه شيطان الأهواء،
فاشترها وأهداها إلى محظية هندية اسمها ممتاز ييجوم
فمشتها راجا آخر وحاول إغواءها ففشل فشرع في
خطفها فلم يفلح فكاد لها كيداً ذريعاً تمكن به من
قتلها في كمين

فتار مهر اجا أندور لحبوبته باغتيال راجا خارستان
وكان عقابه الخلع والتشريد والنفي وانتقلت الجوهرة
من الهند إلى الشام محمد علي في طهران فاشترها..
وضمها إلى جواهر أسرة كاشفاد ووضمها في خزانة
في قاعة عرش الطاووس حيث البساط المصنوع على
نمط بساط كسرى مرصعاً بالجواهر، وممدوداً تحت
أقدام العرش. ولعب شيطان الغرور بعقل الشاه فضاع
ملكه وراح منفياً ومات فقيراً مقصياً في مدينة
أوديسا. وورثه نجله الشاه احمد. عرض الشاه محمد
علي في بطر اسبرج جوهرة على قيصة روسيا فاشترتها
وهي لا تعلم من أمرها شيئاً. وكارثة آل رومانوف
لا تزال ماثلة بالأذهان. فقلت أنطونيا:

— والآن أين تلك النجفة المنحوسة؟

— أرايت أن النجفة لم تحمل لأحد سموداً،

غير أبي وما كسويل الصحفي والوسطاء الذين تدخلوا

في بيعها؟ ولكن من يدرى لعل أبي أخذ نصيبه

بما أصابه من شج في الرأس ومماناة الآلام في طريقه

من النجم إلى امستردام. تسألين أين هي الآن؟ إنها